مداخلات لغوية

أبو أوس إبراهيم الشمسان

لسان آدم (١)*

هذا كتاب ألفه عبدالفتاح كيليطو، وترجمة عبدالكبير الشرقاوي، نشرته دار توبقال في الدار البيضاء (ط٢، ٢٠٠١م)، وهو مقسم قسمين: الأول لسان آدم، وبه سمي الكتاب، والقسم الآخر ترحيل ابن رشد، وهو عنوان أول موضوعات هذا القسم، وأما موضوعات القسم الأول فهي (ثغثغات، بلبلات، جنة عدن بابلية، أقدم قصيدة في الدنيا، شاعر أم نبيّ؟ آدم أو النسيان، مصير قصيدة، ملحق)، وأما موضوعات القسم الثاني فهي (ترحيل ابن رشد، أسباب السفر، العرب والكتاب، انتقام الصورة، الكتاب السحري، امرأة في الحلم، Cide Hamede Benengeli، الجنون الحكيم، الكتاب ونقيضه، الكتاب الغريق). وهذا الكتاب مكتوب في أصله باللغة الفرنسية؛ فهو موجه لقراء الفرنسية، وهو معتمد على جملة من الأقاويل المطّرحة المتروكة لأنها لا أصل لها، وقد تكون قيلت للتسلية أو إثارة العجب، وهكذا كان حديث خرافة، احتفل المؤلف بهذه الخرافات لينظم منها عقدًا زائفًا أو يرسم لوحة فسيفسائية تسر بعض الناظرين؛ ولكنها عند القرب منها كالسراب، ففي الثغثغات(١) يتساءل عن لسان آدم، واختار اللسان ليس لأنه الاسم المطلق على اللغة كما في القرآن بل لأنه لفظ يحقق له دلالة مشتركة وهي اللغة واللسان الجارحة المتذوقة، ثم ينطلق بذلك إلى ثنائية (المعرفة والعَرْف) في الشجرة التي نهي آدم وحواء عنها ولكن آدم يتذوق عَرف الثمرة من شجرة المعرفة، ويتعمد استعمال العرف لما بين المعرفة والعرف من مشترك في الجذور (ع/ر/ف) وإن كان العرف يشم لا يتذوق إلا على نحو من المجاز، ويمعن في الثنائية حين يشير إلى أن المعرفة تمييز بين الخير والشر، والتمييز شقّ، فيربط هذا بلسان الحية المشقوق، ولا ينسى أن ينقل عن الجاحظ وصفه لسانها، ذاكرًا أنها تخرج لسانها لما يهاجمها الإنسان وكأنها تذكره بما حدث في الجنة، ويسوق المؤلف جملة من النقول المختلفة منها قصة حي بن يقظان، ليرى فيها تلميحًا لخروج آدم من الجنة، ومن الغريب أنه لم يقف عند دلالة الاسم الدال على الحياة واليقظة، فالحياة مشتركة بين الإنسان والحيوان، واليقظة معرفة للإنسان هدته إلى معرفة خالقه، ومهما يكن من الأمر فهو يجمع ببراعة أشتاتًا غير مجتمعات، قد تعجب الناظر فيستطرفها؛ ولكنها أبعد شيء عن عقله.

وأما في (بلبلات)(٢)فيتعرض لاختلاف لغات البشر فيطرح جملة من الأسئلة عن اللسان الأول وسبب اختلاف لسان آدم عن غيره، وتفسير تعدد الألسنة ومتى بدأ ذلك، ويبني الكلام على زعم أنّ اللسان واحد «كان ذلك لما كانت الأرض بأجمعها تتكلّم لسانًا واحدًا، وتحديدًا قبل بابل»، وأما بابل فبني فيها برج رأى أنه محاولة بشرية للتحول إلى آلهة، وينقل من الكتاب المقدس ما يدل على نزول الرب ليرى البرج وليعاقب بني آدم ببلبلة لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضًا، ثم يقرن بين خطأ بناء البرج وخطأ تذوق ثمرة شجرة المعرفة، إذ تفرق الناس واختلفت ألسنتهم، ثم نجده يمضي في ذكر آيات قرآنية يستخلص منها أن هذا الاختلاف ليس عقابًا للبشر بل هو شرط للمعرفة، وينتهي الكلام في (البلبلات) من غير إجابة شافية لما قدم من أسئلة، وأنى تجاب تلك الأسئلة في غياب تاريخ البشرية الطويل؛ فعمر اللغات أبعد من أن يعرف أصله ومنشؤه؛ ولذلك أخرج درسُ أصل اللغة من علم اللغة. ولكن المؤلف يعالج هذا في (جنة عدن بابلية) فيذكر تساوي اللغات في نظر الله؛ ولكن حركة الشعوبية جعلت العرب يستغلون نزول القرآن بالعربية ليزعموا تفوق لغتهم وأنها لغة أهل الجنة، على أنه ينطلق من قول لابن جني إلى أن آدم وولده يعرفون جميع الألسنة، ويزعم أنّ البشر لما تفرقوا استقل كل فريق بلسان، ثم يعرض لنشأة اللغة من حيث التوقيف وينقل أقوال من يذهبون إلى ذلك كابن حزم الذي لا يجزم باللغة الأصلية، ويرى فجاجة دعوى من قال إنها لغة أهل الجنة محتجين بنقل الله خطاب أهل الجنة بالعربية؛ إذ ليست هذه بحجة؛ لأن الله نقل خطاب أهل النار بالعربية أيضًا، ومهما يجد القارئ في هذه الكتابات من سياق ممتع فإنه لن يجده في قياس مقنع.

(*) مهداة إلى ابني أوس لما اقترح قراءة الكتاب وتقديمه للقارئ.

(١) جاء في تهذيب اللغة «الثغْثَغَة: الكلام الذي لا نظامَ به».

(٢) جاء في لسان العرب «والبَلْبَلَة: اخْتِلَاطُ الألسنة. التَّهْذِيبُ: البَلْبَلَة بَلْبلة الألسن».

◆ الرياض

لإبداء الرأي حول هذا المقال، أرسل رسالة قصيرة SMS تبدأ برقم الكاتب«٧٩٨٧» ثم أرسلها إلى الكود ٨٢٢٤٤

الجنون في منطقة المفاهيم في الثقافة العربية «٢»

د. أحمد بن علي آل مريع

> المستوى الأول من توصيفات الجنون:

نجد أنفسنا في هذا الجانب، أمام أكثر من توصيف رائج تطرحه المؤلفات أو الرموز الثقافيون، تختزل الرؤية المؤسسية للجنون، ويمكن أن نضعها في ثلاثة مستويات بينها اتصال.. وهذه المستويات الثلاثة يكمل بعضها بعضًا، ويفصح بعضها عمّا يلمح إليه الآخر، ويتأسس بعضها على بعض، مما يجعلها تبدو كأنها تقدم هذا الفهم الإبستمولوجي بطريقة المقدمات والنتائج:

المستوى الأول: العرض: يُوصف الجنون بأنه: «عارض يغمر العقل»، أو أنه: «الذي يغطي العقل». والمجنون هو «المغطَّى العقل».

في هذا المستوى يُتلقى الجنون بصفته (عرضًا)، والعقل (أصلًا).. «والعرض هو: الذي يعرض ولا يصح بقاؤه...، يدل على ذلك قولهم: عرض لفلان عارض من مرض وصداع؛ إذا قرب زواله ولم يُعتقد دوامه. ومنه قوله عز وجل: {تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.. وقوله: {هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا}، فكل شيء قرب عدمه وزواله موصوف بذلك»، ولذلك قيل للدنيا: «عرض حاضر يأكل منها البرّ والفاجر». ومن ثمَّ فإن التوصيف السابق للجنون يصدر عن وعي بالجنون، ويؤسس أيضًا لطائفة من المفاهيم، التي تنعكس على تلقيه؛ بل تكوّنه. هذه المفاهيم يمكن التنبيه عليها من خلال الوقفات التالية:

- العقل هو الأصل، وهو الأسبق.

- الجنون طارئ على الحياة، وعلى التجربة البشرية.

- كما أن التعبير بالعرض يحتوي على إشارات خفية تمرر وصف الجنون من خلال تصنيفه:

- بأنه «حائل بين النفس والعقل»؛ يمنع من التّعقل، وليس مزيلاً للعقل بالكلية!

- العمل على إزالة هذا العارض ومداواته متوقعة؛ لأن العارِض «يقبل العلاج» أو الإزالة.

- وأنه غير مكتسب ولا مقصود إليه، بل جاء على نحو مجهول! ومن حيث لا يُعلم ولا يُدرى من أينَ أتى، لذا تقول العرب: «أصابه سهم عرض، إذا جاءه من حيث لا يُدرى من رماه» قال يعقوب بن السكيت: في قول الشاعر: «عُلِّقتها عرضًا»، أي: كانت عَرَضًا من الأعراض اعترضني من غير أن أطلبه. فالجنون إذن: طارئ؛ غير مكتسب، مانع من عمل العقل.

- وكون الجنون عرضًا لا أصلاً، وعارضًا لا دائمًا؛ يجعله مستبعدًا عن أن يكون خيارًا لما هو قائم، أو ما يراد له الاستمرار. لكنه في أحسن الحالات - يستدعي الاعتراف به على هذه الصفة في خانة النقص العارض؛ وعلاقته بالعقل تستدعي إلى الذهن علاقة أخرى وثيقة الصلة به في منظومتي القيم والمعارف، وهي: علاقة الباطل بالحق. فالجنون شيءٌ من جنس الباطل؛ لاشتراكه معه في صفة مركزية مهمة، تجعله غير مؤهل للقبول والاعتماد عليه، وهي سرعة الزوال، أو القابلية للزوال الوشيك بإزاء ما هو ثابت وباق ومحكم.

قال ابن فارس:«الباء والطاء واللام أصل واحد، وهو ذهاب الشيء، وقلة مكثه ولبثه، يقال: بطل الشيء يبطل بطلاً وبطولاً. وسُمي «الشيطان» الباطل لأنه لا حقيقة لأفعاله، وكل شيء منه فلا مرجوع له، ولا معول عليه».

وكل ما لا ثبات له من القول والفِعل عند الفحص عنه فهو باطل. ونقيضه الحق. والحقّ يستدعي العقل؛ لأنه من جنسه، كما استدعى الباطل الجنون لأنه من جنسه، فالحقّ: «يدل على إحكام الشيء وصحته، فالحق نقيض الباطل، ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج، وحسن التلفيق». وكل فعل أو قول صدر بحسب ما يجب، في الوقت الذي يجب، بالكيف الذي يجب، فهو حق...

- هذا الفهم يستدعي من المجتمع تجاه المصاب بالجنون المساعدة والمسامحة. ولكن في الوقت ذاته يتم تصنيف الجنون وما ينتج عنه ضمن دائرة الزائل = الباطل، ومن ثمّ فلا يلتفت إليه ولا يعتد به، أو بعبارة ابن فارس «لا مرجوع له، ولا معوّل عليه».

- العارض يشمل ما كان حقيقيًا أو حكميًّا (ثقافيًّا) بحيث يحول بين العقل وبين أداء وظائفه؛ فالمخمور، والغضبان، والغيران، والشهوان، والمدهوش، والخائف، والمضطرب، والعاشق، والمنشغل بشيء أو المتعلق به، المنخلع مما حوله، والخارج على سمت مجتمعه وما يألفونه، يصح فيه - من الموقع المؤسسي - أن يوصف بالجنون، لوقوع العرض الذي يغمر العقل ويغطيه، أو الحائل الذي يحول دونه، ولو لم يكن الموصوف به عليلاً على الحقيقة!

وفي المستوى الثاني يتحدد معنى «غمر العقل» أو «تغطيته»، وذلك من خلال سياق المخالفة لأفعال العقلاء.. (يتبع)

◆ أبها

ثقافة السياحة: صباحات من ذاكرة (لندن) (١)

د. عمر بن عبد العزيز المحمود

لا يختلف اثنان على أن السياحة تعد من أكثر الصناعات نموا في العالم، وكما يقول المختصون فقد أضحت من أهم القطاعات في التجارة الدولية، ويمكن للغة الأرقام أن تؤكد ذلك، فقد اطلعت على إحصائية قديمة تؤكد أن قيمة الصادرات السياحية في عام ١٩٩٨م قد بلغت نحو ٥٣٢ بليون دولار، يليها مباشرة إنتاج المركبات بقيمة ٥٢٢ بليون دولار، وإذا كانت هذه الإحصائية تشير إلى التفوق الواضح للسياحة على غيرها من المنتجات قبل ١٥ سنة تقريباً فيمكن للمتأمل أن يتصور المدى الذي وصلت إليه قيمة الصادرات السياحية اليوم.

ورغم عدم تخصصي في هذا الموضوع إلا أن الجميع يدرك أن السياحة من زاوية اقتصادية قطاع إنتاجي له أثر بالغ الأهمية في زيادة الدخل القومي، وتحسين ميزان المدفوعات، كما تعد مصدراً للعملات الصعبة، وفرصة لتشغيل الأيدي العاملة، وهدفاً لتحقيق برامج التنمية، كما أنها من زاوية اجتماعية وحضارية يمكن القول بأن السياحة حركة ديناميكية ترتبط بالجوانب الثقافية والحضارية للإنسان؛ بمعنى أنها رسالة حضارية وجسر للتواصل بين الثقافات والمعارف الإنسانية للأمم والشعوب، ومحصلة طبيعية لتطور المجتمعات السياحية وارتفاع مستوى معيشة الفرد، أما على الصعيد البيئي فالسياحة تعد عاملاً جاذباً للسياح وإشباع رغباتهم، من حيث زيارة الأماكن الطبيعية المختلفة، والتعرف على تضاريسها وعلى نباتاتها والحياة الفطرية، بالإضافة إلى زيارة المجتمعات المحلية للتعرف على عاداتها وتقاليدها.

بدأت بهذه المقدمة العامة لصلتها الوثيقة بموضوع هذا المقال، هذا الموضوع الذي انقدح في ذهني أثناء زيارتي الأخيرة للعاصمة البريطانية (لندن) للمشاركة في يوم المهنة الثالث، فمن خلال تجوالي في هذه المدينة الرائعة لحظت أن المسؤولين فيها يولون اهتماماً كبيرا بالسياحة، بوصفها عامل جذب بالغ الأهمية للشعوب الأخرى، ومن ثم الإفادة من العائدات المالية في التنمية على مختلف أنواعها.

وقد كنت أعتقد في السابق أن اعتدال الجو وجماله وصفاءه فحسب هو ما يجذب السياح إلى مثل هذه المناطق ويغريهم بشد الرحال إليها، غير أن هذا الاعتقاد قد تلاشى لما رأيت الأعداد الهائلة للسياح من مختلف أصقاع العالم رغم برودة الجو التي تتجاوز العشرة تحت الصفر، دون آبهين بكل ذلك، وما ذاك إلا لأنهم أدركوا أن مقومات السياحة متوفرة بامتياز في هذه المدينة، وهنا يحضر السؤال: ما هي أبرز المقومات التي اهتمت بها هذه المدينة وحرصت على تفعيلها في الوقت الذي لم نتمكن من فعل ذلك؟ وهل ما لديهم غير موجود لدينا؟ أم أنه موجود لكننا لم نتمكن من تفعيله، ولم نعرف كيفية استثماره لإنعاش السياحة في وطننا الحبيب؟ هذا بغض النظر عن المقومات الطبيعية المتمثلة في اعتدال الجو الذي يخرج عن قدرة البشر ولا يملك التصرف فيه سوى المولى عز وجل؟ هذا ما سأحاول أن أجيب عليه وأرصده في الجزء الثاني من هذا المقال.

omar1401@gmail.com

◆ الرياض